القدس

في اللوحة التشكيلية الأردنية... مشاهد مشتقة من أرض الحنين والحلم.

• حسين نشوان

تداخلت في القدس التي أسسها اليبوسيون في الألف الثالثة قبل الميلاد أنماط العمارة والفنون الرومانية والقوطية والعربية الإسلامية وتعددت الأخيرة بين الأموية والفاطمية والمملوكية والعثمانية، ومن أبرز أماكنها المقدسة قبة الصخرة التي بناها الأمويون العام 691م والمسجد الأقصى وكنيسة القيامة.

شكلت المدينة في تاريخها ومكانتها المقدسة والأحداث التي مرت عليها ونمط عمرانها وهندستها، مصدر إلهام للمبدعين والفنانين، وخصوصا الفنان التشكيلي الذي أفاد من ألوانها وعماراتها وفنونها كمفردات وموضوعات للوحاته.

وتكمن فرادة المدينة في عمارتها وفنونها التزيينية من تزجيج وخط عربي وتكفيت وحفر وأعمال فسيفسائية ورخام وتذهيب قلما توفرت لمدن أخرى، حتى وصفها الدارسون بأنها "من أجمل مدن الدنيا" و"آية في الفن" واعتبروا قبة الصخرة "معجزة معمارية".

وتتمتع المدينة إلى ذلك بمناخ معتدل وطبيعة خلابة، فهي تقع على تلة تحيط بها أشجار الزيتون (المقدسة) التي تضفي خضرة دائمة على جبالها فيما تفترش أرضها بالدحنون ربيعاً، وتمتاز بصفاء سمائها وزرقتها ونقاء ضوئها الذي ينعكس على حاراتها العتيقة التي تماهت مع العمارة المقدسة في شكل أقواسها وقبابها وألوان حجارتها التي تميل إلى اللون الأبيض الهادئ، كما يصفها الناقد جبرا إبراهيم جبرا.

• عمان ، جريدة الرأي

كتب الرحالة عن مكانة القدس وجمالياتها وطبيعتها، وأخذت حيزاً كبيراً في القصيدة العربية وخصوصاً مع تصاعد الأحداث والملمات عليها. ومع نشأة فن السينما والتلفزيون اشتغل السينمائيون الكثير من الأفلام الروائية والوثائقية حول تاريخ المدينة وجمالياتها فضلاً عن القصائد المغناة، ومن أشهرها "الفيروزيات".

> **"شكلت المدينة في تاريخها ومكانتها المقدسة والأحداث التي مرت عليها ونمط عمرانها وهندستها، مصدر إلهام للمبدعين والفنانين، وخصوصا الفنان التشكيلي الذي أفاد من ألوانها وعماراتها وفنونها كمفردات وموضوعات للوحاته"**

في مجال الفن التشكيلي، فإن أقدم الرسومات لمدينة القدس كانت للمستشرق دافيد روبرتس، العام 1830 الذي قام برحلة إلى مصر وبلاد الشام رسم خلالها المواقع المقدسة لغرض تزيين الكتاب المقدس.

وخلال ذلك رسم بالألوان المائية الكنائس والأديرة والمسجد الأقصى وقبة الصخرة والمغطس والبحر الميت والأماكن الأثرية والمواقع السياحية المرتبطة بسير الأنبياء، وسجل خلال ذلك البيئة المحيطة في فصولها المختلفة والأشجار المحيطة بها ووسائل النقل آنذاك وأزياء أبناء المنطقة وملامح معاشهم اليومي، غير أن الفكرة التي انطلق منها روبرتس لم تتجاوز الدليل للحاج والمتعبد بأسلوب واقعي، وحرفية كلاسيكية عالية.

وبعد وقوع المدينة المقدسة العام 1948 تحت الاحتلال الإسرائيلي نهض الفنان التشكيلي في المشاركة في فعل المقاومة والتحريض من خلال الصورة، التي اظهر فيها قبة الصخرة أسيرة تستصرخ العرب وهو ما برز في أعمال إسماعيل شموط بداية الخمسينيات، ولم يكن مثل هذا الفعل مجرد تزيين ونقل لجماليات المدينة المقدسة كما هي عند المستشرقين، بل كان محركاً لمشاعر الناس ومحرضا لوجدانهم، وهو ما أدركه المحتل الإسرائيلي الذي أقدم عند احتلاله للقدس العام 1967 على إطلاق النار على لوحات شموط التي كانت معلقة في بلدية القدس وتمزيقها، وهو دليل على الفعل الذي يمكن أن يحققه الفن في المسيرة النضالية.

جاءت أحداث نكبة العام 1967 لتطرح الكثير من التساؤلات أمام الفنان التشكيلي، حيث اتسعت آنذاك– بفعل انتشار التعليم – مساحة الاهتمام بمثل هذه الأداة التعبيرية، وتعززت بازدياد عدد الخريجين من المعاهد الفنية العربية في القاهرة وبغداد وأوروبا، وكانت الصدمة بالنسبة للفنان التشكيلي أكثر عمقا، إذ عاد خلالها الفنان ليس فقط إلى جماليات المدينة، وإنما إلى عمقها التاريخي وارتباطها النفسي والوجداني والشعبي والفلسفي والجمالي فتعددت الرؤى وتنوعت الأسلوبيات والتقنيات، وأصبحت مدينة القدس بالنسبة للفنان ليست مجرد مكان، بل تحد للوعي الجمالي والفكري، وأداة للتعبير الثقافي، وخطاب فني كرد فعل ليس على الاحتلال، وإنما على الهزيمة التي تسكن الذات قبل أن تطرق أبوابها من الخارج. فأخذت المعالجات تعبر عن الوعي باستلهام تاريخ المدينة وعلاقة فنونها بالعمق الحضاري والثقافي، واسترجاع واقع تأسيسها، وتوثيق وقائعها وانعكاساتها على الإنسان، سواء من ناحية وحدة الفنون التي أنشئت عليها أم استلهام مفرداتها لتأسيس أسلوبيات ترتبط بخصوصية المدينة وتراثها الحضاري.

وقد برزت العديد من الأسماء التي تناولت القدس كموضوع فني، ومنها: إسماعيل شموط، تمام الأكحل ود. محمود صادق وياسر الدويك محمود طه، رفيق اللحام، سامية الزرو، سلام كنعان، محمد الجالوس، نصر عبد العزيز، حسين دعسة، غازي انعيم د. عرفات النعيم ، جهاد العامري ود. علي الغول، وسواهم من الفنانين

ظهرت مدينة القدس في اللوحة التشكيلية في وقت مبكر لتعبر عن تأثر الفنانين بالمأساة التي حلت بالمدينة وأهلها، وإظهار جمالياتها وإفادتهم من معمارها وهندستها وزخارفها، فضلا عن ألوانها.

برزت دوافع الفنان العربي بصورة مختلفة عن المستشرق الذي تعامل مع الأبعاد السياحية للمكان، فجاءت اللوحة عند الأول منطلقة من الداخل إلى الخارج، من الحدث والتاريخ والبعد النفسي.

> وقد برزت العديد من الأسماء التي تناولت القدس كموضوع فني، ومنها: إسماعيل شموط، تمام الأكحل ود. محمود صادق وياسر الدويك محمود طه، رفيق اللحام، سامية الزرو، سلام كنعان، محمد الجالوس، نصر عبد العزيز، حسين دعسة، غازي انعيم د. عرفات النعيم ، جهاد العامري ود. علي الغول، وسواهم من الفنانين

تظهر القدس عند إسماعيل شموط بمثابة الكراسة التي تؤرخ لمسيرة اللجوء والثورة والنضال والمقاومة، ولتبدو المدينة كيانا يتجاوز الزمان ليصبح ذاكرة الإنسان التي ترافق اللاجئ في مخيمه والمقاتل في معسكره والفتاة في يوم عرسها، ولم تأت هذه المدينة كمفردة، وإنما شكلت باستمرار الخلفية الواسعة والفضاء والمدى للوحة، يتحرك الجموع فيما تظل هي ساكنة بألوانها وهيبتها وجلالها معبرة عن قداستها ومكانتها في وجدان العربي والمسلم ولتظل باستمرار محرضة للفعل.

جاء التعبير البصري عند الفنان رفيق اللحام وفق أسلوبية للبحث والتجريب بين المفردات التزيينية والزخرفية والحروفية بصفتها منجزاً حضارياً وثقافياً يمكن أن يؤسس للوحة عربية،

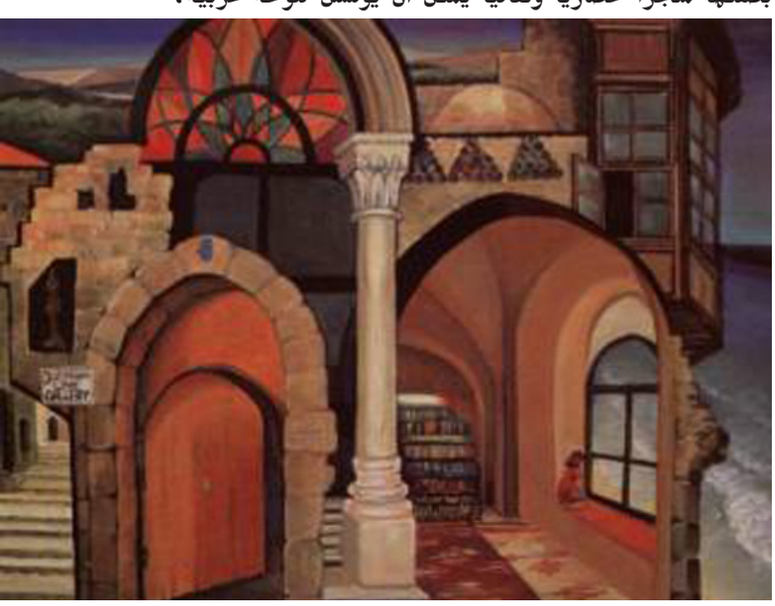

الفنانة تمام الأكحل

وأضيفت إليها المفردة الشعبية من أزياء ورموز شعبية، لتعبر عن خصوصية تشكيلية تجلت في أعمال رفيق اللحام، الذي أفاد من طبيعة الخط العربي والزخرفة وألوان قبة الصخرة، لإنجاز لوحة تخاطب الوجدان.

وتمتاز قدرة الفنان محمود صادق في تناوله لمدينة القدس في استخدام الألوان المشرقة التي تحمل الأمل الفرح والحلم، فهي ألوان الحياة والطبيعة المشرقة، للتعبير عن الحنين للمكان والأمل بالعودة إلى زمانه.

فهو في اختزاله للزمان يطويع عبر الأسطورة والحكاية والموروث والتقاليد الشعبية، والطفولة يستعيد اللحظات طازجة للذاكرة.

المفردة ذاتها التي وظفتها الفنانة سامية الزرو بالإفادة من التطريز والقباب وفق تقنية المواد المختلفة من أقمشة ومعادن للدخول إلى فكرة التماهي بين المكان وأثر الإنسان وحضوره، وصدور الفن عن بيئة واحدة، لإضفاء البعد الشعبي على اللوحة.

الفنان محمود طه

ومن هذا النبع الجمالي الخطي والزخرفي نهل الخزاف محمود طه مكونات أعمالة السيراميكية التي انطوت على إبراز جماليات المكان.

ويقول الناقد عبدالله أبو راشد إن مدينة القدس بجميع معالمها وخصوصيتها ظلت في ذاكرة الفنان محمود طه ضمن مساحة حلم التحرير والعودة الفلسطيني تُمثل عروسه البصرية ومرجعيته البحثية المزينة بوهج الأفكار وجماليات التأليف البصري. وهي مفتوحة على جميل الصنعة وغواية التنوع التقني، يربطها الفنان بخيط ابتكار تقني ومعرفي واحد، قوامه مفهوم الوطن الفلسطيني والدولة الفلسطينية الجامعة لتراب الوطن الفلسطيني من أقصاه إلى أقصاه.

فالمدينة المقدسة عند الفنان طه هي الاسم الحركي لمجموع المدن الفلسطينية، ومفردة تشكيلية جامعة، ومستعارة من بيوت القدس القديمة ومعالمها التاريخية الدينية المسيحية والإسلامية، ومستلهمة من سور وآيات قرآنية دالة على قدسية المكان في ذاكرة العرب والمسلمين، عبر توظيفه التقني الموفق في لوحات وأعمال فنية تشكيلية متعددة الصنائع، تخرج من بين يد الفنان وذاكرته الحافظة، رؤى سردية جامعة وشاملة لجماليات النفس والهوى والطموح، تُخلد الأثر المكاني ويوميات المعايشة في أعمال فنية تشكيلية وتطبيقية، هي أشبه بتذكارات وبطاقات دخول مريحة إلى فضاء القدس، وتوثيق بصري فكري وجمالي لمدارات الوطن الفلسطيني والمدينة المقدسة.

وتنتمي أعمال الفنانة تمام الأكحل إلى المدرسة الواقعية التعبيرية، والتعبيرية التأثيرية وتمتاز بتوليفات السطوح بالعناصر والمفردات المختلفة.

تحكي أعمالها قصة المعاناة والثورة برمزية القدس ومكانتها الوجودية والتاريخية، وتلخص لوحتها "الشرخ" الحياة اليومية الفلسطينية، وتقارب واقع الحال الفلسطيني بتعبير عن عروبة المدينة المقدسة كعروس تنتظر عريسها ومحررها.

وابرز الفنان نصر عبد العزيز القدس وقبة الصخرة كعلامة وشارة ورمز في عدد من اعماله ضمن توكيده على هوية المدينة ورسوخها في وجدان الإنسان، وكان لاهتمامه بالصوفية وأغانيهم الشجية التي كانت تغنى في ليالي المناسبات الدينية، مثل المولد النبوي الشريف ومقتل الحسين بن علي، تأثير في تكوينه الثقافي، حسب الناقد غازي انعيم.

ودفعه تأثره بالصوفية إلى البحث عن مثيلاتها في الكنيسة ، حيث كان يحضر الاحتفالات الدينية في كنائس القدس وبيت لحم ، وكان يشاهد على جدرانها وسقوفها اللوحات والأيقونات.

وتركت تلك اللوحات التي كان يقلدها بالألوان المائية والقلم الرصاص تأثيرا مهما في تكوينه الفني ، فرسم الطيور والحيوانات

وكل ما له علاقة بالقرية الفلسطينية.

وجاءت مدينة القدس في لوحات الجالوس وسلام كنعان لتحيل إلى فكرة الدهشة التي يختبر فيها الفنان ما اختمر في ذاكرته من حلم، يذهب إلى خارج محترفه لرسمها وتلمس ألوانها وجدرانها ورصد تفاصيلها، فيعيد ألوانها بشكل شعري، وكلاهما يستخدم الألوان المائية التي تمنح السطح شفافية اقرب إلى الموسيقى، وهي محاولة لإعادة اكتشاف المكان في الذاكرة وإعادة تحديد الحلم.

ورسم الفنان بشارة النجار مدينة القدس بايحاء الذاكرة محتفيا بفلسطين والمدينة المقدسة ، وهو في أعمالة يحول استقراء التشابه بين المكانين في الاردن وفلسطين.

وقد استخدم الفنان خامات الالوان الزيتية و المائية و الجرافيك اليدوي على كانفص وكرتون في التعبير عن رؤاه البصرية للمكان التي جاءت باسلوب واقعي وانطباعي.

وتنحو معالجة حسين دعسة في رسمه منحى تعبيرياً ينطلق من الذات لإعادة السؤال، عن مصير القدس الأسيرة للتعبير عن صورة القدس في ذاكرة الطفولة.

أما الفنان غازي انعيم فهو يثري خلفية اللوحة بالمتواليات المكانية، مركزا على بؤرتها بالرسالة البصرية التي تفارق جملة المشهد بما يحمل من انكسار وأمل، لخلق تيار من الوعي للخروج من مأزق الراهن.

وينطلق الفنان جهاد العامري من قراءة معرفية للمكان تتداخل مع المنجز الإبداعي في الشعر والوثيقة، مستفيدا من إمكانيات الزخرفة و متو ا ليا تها ، لقراءة وحدة منابع الفن العربي والإسلامي في العمارة والزخرفة التي تعود في أصلها إلى وحدة الكون وفكرة التوحيد حيث يتحول المكان إلى فكرة يكون فيها المرئي قابلاً للتأويل بما يشبه النص المفتوح الذي تتداخل فيه ملامح الكائن المكان، وتتقاطع الخطوط في اللوحة لتصبح أشبه بالمتاهة البصرية التي تدعو للبحث عن إجابات، تقع على عاتق المتلقي.

ويسعى الفنان د. عرفات النعيم من خلال أعماله الجرافيكية إلى تشكيل بناءات بصرية تجريدية على شكل متاهة بصرية تتوسطها قبة الصخرة، لاحداث نوع من المناقلات الارتحالات بين كتل اللوحة لماثلة معاناة المدينة.

الفنان علي الغول وهو مهندس معماري له دراسات في جماليات القدس وأنماطها العمرانية اشتغل في اللوحة على المدينة بتقنية الحذف والإضافة للتعبير عن تحولات المكان في الذاكرة والمشاهدة، بهدف إثراء المساحات باللون والخطوط المتشابكة التي تظهر المدينة كمشهد من يشتق من أرض الحلم.

لقد شكلت الفنون والجماليات والبعد التاريخي والوجداني لمدينة القدس هواجس ومرجعيات لم تقتصر على إثراء الموضوع عند الفنان، وإنما تجلت في معالجة الشكل واللون، للذهاب أبعد من ذلك في البحث عن أسلوبيات تسعى لتشكيل لوحة ذات ملامح عربية، تستند إلى مفردات المدينة الجمالية والتاريخية والنفسية والوجدانية.

الفنانة سامية الزرو